● أدلة الإيمان فى النظر العقلى الصحيح :

المنكرون لوجود الله من أصحاب العقول قِلَّة بالنسبة لأصحاب العقول المؤمنة بوجود الله . وأقوى دليل عقلى عند المؤمنين بالله من أهل الفكر والنظر العقلى هو « قانون السببية » الذى عبَّروا عنه بقولهم : « كل فعل لا بد له من فاعل » .

هذا القانون وإن عُرِف قبل نزول القرآن ؛ لأنه قانون فطرى ، فإن القرآن حين ذكره أضاف إليه قانوناً فطرياً آخر هو قوله تعالى : ﴿ **أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾ ، فصار لدينا قانونان فطريان :

أحدهما قانون السببية وهو : « كل فعل لا بد له من فاعل » .

والثانى يمكن أن نسميه : « قانون الاستحالة » وهو : « أن المعدوم لا يُوجِد نفسه » ، وآية الطور : ﴿ **أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾ تضمنت ذكر القانونين معاً كما ترى .

وبعد نزول القرآن ، وهدايته للعقل الإنسانى نظر كثير من الفلاسفة العقليين فى أدلة الإيمان بوجود الله ، سواء منهم مَن كان مسلماً أو غير . والذين صدق نظرهم فى هذه الأدلة ساروا مع هَدْى القرآن فيها ، حتى الذين لم يتخذوا من القرآن مبدأ لنظرهم . وفى ما يأتى بيان موجز لهذه الاتجاهات . .

❊ ❊

● العلامة ابن رشد :

ابن رشد عَلَمٌ من أعلام الفلسفة الإسلامية العقلية ، وقد هداه نظره فى القرآن لإثبات دليلين قويين على وجود الله :

الدليل الأول ، دعاه دليل : « الاختراع » ، وهو وثيق الصلة بقانون السببية المتقدم ذكره .

والدليل الثانى : هو دليل العناية . .

* دليل الاختراع :

والمراد بهذا الدليل عند ابن رشد هو هذا الخلق المبدع ، أى خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما . ويعتمد هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة على غير مثال سابق ، أى أوجدها الله من العدم . وهذا كما يقول ابن رشد ملحوظ بقوة فى خلق النبات والحيوانات والإنسان ، لأننا نشاهد وجودها بعد عدمها فى دورات منتظمة .

أما السموات والأرض فيُستدل على وجودها بعد عدمها بحركاتها وأنها مُسخَّرة مقهورة لخالقها .

أما الأصل الثانى : فيقول فيه ابن رشد : « إن كل مُخْتَرَع لا بد له من مُخْتَرِع » ، والنظر العقلى ينتهى من هذا إلى الإيمان بوجود الله .

*

* دليل العناية :

دليل العناية هو الدليل العقلى الثانى عند ابن رشد على ضرورة الإيمان بوجود الله . ومعنى هذا الدليل أن الله خلق الكون وما فيه للعناية بالإنسان وتدبير أمره ، فكل ما فى الكون فيه منافع للناس : السموات وما فيها من كواكب ، والأرض وما عليها من جبال رواسٍ وأنهار جوارٍ وبحار ومحيطات وزروع وأنعام . ويعتمد هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين كذلك :

أحدهما : أن جميع الموجودات موافقة لمنافع الإنسان والعناية به .

والثانى : أن هذه العناية مقصودة لفاعل حكيم مختار ، هو الله .

ذكر العلامة ابن رشد هذا الكلام فى كتابه القيم : « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل المِلَّة » ، وقال : إن آيات القرآن الكريم تتنوع فى الدلالة على وجود الله ثلاثة أنواع :

نوع يتضمن التنبيه على دليل الاختراع .

ونوع يتضمن التنبيه على دليل العناية .

ونوع يتضمن التنبيه على الدليلين معاً .

فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (١) .

ومن النوع الثانى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ (٢) .

ومن النوع الثالث قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

هذا ما انتهى إليه فيلسوف عقلى مسلم ، وهو موفق فى رصده هذين الدليلين وفى التمثيل لهما ، بَيْدَ أن القرآن فيه أدلة أخرى لم ينتبه إليها ابن رشد ، وليس هذا يضيره ، فحسبه ما اهتدى إليه رحمه الله .

* *

● الفلاسفة غير الإسلاميين :

وانتهى فلاسفة الغرب غير المسلمين إلى ما انتهى إليه ابن رشد الفيلسوف المسلم ومعه غيره من الفلاسفة الإسلاميين .

فحكماء أوروبا اعتمدوا ثلاثة أدلة عقلية على وجود الله وجوداً لا يتطرق إليه شك ، ودليلان من هذه الأدلة الثلاثة هما دليلا ابن رشد مع اختلاف التسمية .

---

(١) الطارق : ٥ - ٧ (٢) البقرة : ٢٢ (٣) غافر : ٦٤

* أول هذه الأدلة الثلاثة هو برهان الخلق ، ويسميه الأوروبيون « البرهان الكونى » ، ويُفسِّرون هذا البرهان بأن الكون ومَن فيه وما فيه كائنات تتوارد عليها الحركات ، وكل متحرك لا بد له من مُحَرِّك عظيم يؤثر فى الموجودات ولا يؤثر فيه هو شئ .

* وثانى هذه الأدلة هو « برهان القصد والغاية » ، وفى معناه يقولون : إن نظام العالَم يدل دلالة قاطعة على وجود إرادة محيطة به وبما فيه من الأسباب والغايات . وفى هذين الدليلين يلتقى فلاسفة الغرب الحديث مع حكماء الإسلام القدماء .

* أما الدليل الثالث فيسميه حكماء أوروبا « برهان الاستعلاء والكمال » ، فالله هو المحرِّك والمنظِّم المريد ، وصاحب المثل الأعلى ، غنى بنفسه عن غيره ، غير محتاج إلى شئ قط ، لا أول له ولا آخر .

وهذه الأدلة الثلاث نطق بها القرآن فى أجلى بيان ، وقد سبق التمثيل من القرآن للدليلين الأوَّلين ، أما الثالث فقد جاء فى القرآن الحكيم نصاً قاطعاً فى لفظه ومعناه : ﴿ **وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** .. ﴾ [1] .

وهكذا تكفَّل القرآن العظيم بهداية العقل وإمتاع الروح بإيراد الأدلة القاطعة على وجود الله العظيم ، وإنك لتجد هذه الأدلة مبثوثة فى آياته على نسق عجيب حكيم . يدركها الخواص بظواهرها وبواطنها ودقائق أسرارها ، ويدركها العوام بآثارها وظلالها ، فتتيسر أسباب الهداية أمام طُلابها ، وتقوم الحُجَّة على الملحدين والمعاندين .

❊ ❊

---

(١) الروم : ٢٧

● **صفوة القول :**

إن العقل السليم يهتدى بكل يُسر إلى أدلة وجود الله خالقاً ومدبِّراً . أما مَن أنكر وجوده فهم قِلَّة عميت قلوبهم وزاغت أبصارهم ، وطُمِست عقولهم ، وأن الاعتقاد بوجود الله حقيقة فطرية أدركتها الأمم البدائية ، وعبَّرت عنها فى مسميات مختلفة ، حتى إذا جاءت الرسل جلَّتْ أمر هذه الحقيقة بكل وضوح ، مستعينة فى تجليتها بآيات الله فى الكون وفى النفس ، لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل .

* * *

● **مواجهة القرآن للإشراك والتعدد :**

الإشراك والتعدد يبدوان فى ظاهر الأمر مترادفين ؛ أى هما لفظان يدلان على معنى واحد ، بَيْد أن الأمر خلاف ذلك ؛ لأن الإشراك ملحوظ فيه معنى الإيمان بالله مع إشراك غيره فى الألوهية معه سبحانه عما يقولون .

أما التعدد فأعم من الإشراك ، لأنه يشمل الإشراك ، ثم يختص بظاهرة تعدد الآلهة فى العقائد الوثنية التى لا تؤمن بالله ، وقد مرَّ بنا الحديث عن هذه الظاهرة عند اليونانيين القدماء ، وعند الهنود ، وعند قدماء المصريين ، وعند الرومان .

والإشراك يكاد يختص ببعض الأديان الكتابية . فاليهود جعلوا « عزيراً » ابناً لله - سبحانه - ثم توَّسعوا فى اتخاذ أحبارهم أرباباً من دون الله !!

والنصارى شاعت عند جماهيرهم عقيدة « التثليث » : الآب ، والابن ، والروح القدس .

ولم تسلم البيئة العربية قبيل نزول القرآن من عقيدة الإشراك التى سرت إليهم من الأمم الأخرى ، فعبدوا الأوثان والأصنام آلهة مع الله ، وسوَّل لهم

الشيطان سوء عملهم فرأوه حسناً ، وقالوا : ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى** ﴾ (١) .

والإشراك والتعدد من أكثر صور الكفر وجوداً وشيوعاً ، ولهذا فإن القرآن الكريم حينما واجه هذه الظاهرة وقف أمامها طويلاً ، وتصدَّى لها كثيراً فى سور ومواضع متعددة من آيات الذكر الحكيم . وبدهى أننا فى هذه الرسالة الموجزة سنكتفى بما قَلَّ ودَلَّ من الآيات التى أحالت عقيدة التعدد والإشراك إلى وَهْم من الأوهام ، وأقام عقيدة التوحيد مقامها باعتبارها حقيقة « عقلية » خالصة . وإليك البيان :

● دليل عقلى قاطع :

دلائل التوحيد ونفى الشرك والتعدد كثيرة جداً فى القرآن الحكيم ، وكل تلك الدلائل تتجه إلى العقل فتبسط له القول أحياناً ، وتوجزه أحياناً أخرى ، ومن المواضع التى أوجز القرآن فيها دلائل التوحيد ونفى الإشراك والتعدد فى أى صورة كان قوله تعالى : ﴿ **أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ** ﴾ (٢) .

تشير الآية الأولى إلى ظاهرة تعدد الآلهة فى أوهام مَن يدَّعُونها .

ثم تأتى الآية الثانية فتسوق دليلاً عقلياً قاطعاً على صحة عقيدة التوحيد وبطلان ما عداها .

أما الآية الثالثة فتقرر حقيقة ظاهرة لا يرتاب فيها أحد حتى دعاة الإشراك والتعدد أنفسهم .

---

(١) الزمر : ٣ (٢) الأنبياء : ٢١ - ٢٣

وفحوى هذا الدليل العقلى هو هذا النظام الكونى المطرد : السماء فوقنا وفيها الكواكب السيَّارة فى نظام محكم لا يتخلف منذ خلقت ، والأرض تحتنا وفيها الأنهار والمحيطات والبحور والزروع وعليها نعيش ، أجيال تولد ، وأخرى تموت ، وقدر الله نافذ لا يُصَد ، وقدرة قاهرة لا تُرَد ، وأسرار كونية لا يحيط بها علم إلا علم الله الواسع .

هذا النظام دليل قاطع على تفرد منشئه وخالقه ومدبره ، ولو كان معه آلهة - كما يقولون - لفسد نظام السموات والأرض ومَن فيهن وما فيهن ، نتيجة للتصارع بين الآلهة . .

هذا يخلق وهذا يميت ، وهذا يرزق وهذا يفقر ، وهذا يُنزِّل الغيث وهذا يرفعه ، هذا يشرق الشمس وهذا يردها إلى مشرقها ، هذا يُرسى الجبال وهذا ينسفها ، هذا يُجرى الماء فى الأرض وهذا يجففه ، هذا يجئ بالصيف وهذا يمحوه تواً ويجئ بالشتاء ، وثالث يجىء بالربيع ورابع يجئ بالخريف !!

صور من التناقض والاضطراب والفساد لا حصر لها ، والصراع هو شأن كل القوى المتساوية ، ولكننا لا نشاهد فى الكون إلا نظاماً واحداً مطرداً منذ خُلِق . وهذا هو دليل التوحيد والتفرد فى الكمال والجلال لقيوم السموات والأرض .

هذا هو « الله » ذو الجلال والكمال ، يفعل ما يشاء فلا يسأله أحد لماذا فعل ؟ أما غيره من الخلق فهم مخلوقون ومقهورون له : يسألهم عما فعلوا وما تركوا ؛ لأنه المهيمن وإليه المصير .

بهذا الدليل العقلى القاطع تستقر عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب ، وتذهب أوهام الشرك والوثنية فى كل صورة من صورها أدراج الرياح .

* *

● دليل عقلى ثان :

ومن الأدلة العقلية على نفى الشرك والتعدد قوله سبحانه : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ (١) .

صُدِّر هذا الدليل بنفى اتخاذ الله ولداً ، ونفى أن يكون معه إله ، ثم قرن هذا النفى بدليله العقلى الذى فحواه :

لو كان له ولد أو كان معه إله لوقع الصراع بينهم ، فيذهب كل إله بما خلق، ويعلو بعضهم على بعض ، ولدُمِّر الكون تدميراً ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فثبت أن خالق هذا الكون واحد أحد ، ليس له شريك ولا ولد .

إذن . . فماذا يطلب العقل بعد هذا من أدلة على نفى الشرك والإقرار بعقيدة التوحيد ، التى تنطق بها كل آية فى الكون ؟ لقد صدق الشاعر الذى قال :

وفى كل شئ له آيــة تدل على أنه الواحد

❊ ❊

● المطالبة بدليل للشرك :

ومن مواجهة القرآن لإبطال الشرك بالله مطالبة المشركين بدليل على شركهم، وقد جاءت هذه المطالبة فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٢) .

---

(١) المؤمنون : ٩١ (٢) الأحقاف : ٤

فى هذه المطالبة تيئيس للمشركين من شركهم . فهذا الشرك دعوى يدَّعونها ، وكل دعوى لا بد لها من دليل .

فطالَبهم أولاً بأن يُعَيِّنوا لآلهتهم المدعاة نصيباً خلقوه من الأرض فيقولوا : هذا الجزء خلقه آلهتنا ، ولو قالوا لكذبوا ؛ لأنه ادعاء لا بد له من دليل كذلك .

ثم طالبهم - ثانياً - أن يثبتوا أن لآلهتهم شركاً فى السموات ! ولو قالوا : إن لهم شركاً فيها لكذبوا - كذلك - لعجزهم عن الدليل .

ثم تخفَّف معهم فطالبهم أن يأتوا بواحدٍ من اثنين :

إما كتاب نزل قبل القرآن صرَّح بأن لغير الله خَلْقاً فى الأرض ، أو شركاً فى السموات . .

فإن عجزوا فليأتوا بأثارة من علم صحيح تثبت شيئاً من تلك المدعيَّات .

فإذا عجزوا - وهم عاجزن لا محالة - لزمتهم الحُجَّة فبطل الشرك وثبت التوحيد .

إن فى هذه الآية محاصرة للمشركين من كل جهة ، وهداية للموحدين من كل جهة كذلك . وما أصدق الشاعر الذى قال :

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بيِّنـــات أبناؤهـــا أدعيـاء

❊ ❊

● **مثل من أنفسهم :**

مواجهة القرآن - فيما تقدَّم - منصبة على بطلان عقيدة الإشراك والتعدد بوجه عام ، وفى كل صورة من صوره .

والآن نحن أمام دليل عقلى آخر يواجه نوعاً خاصاً من الشرك ، وهو ما شاع عند مشركى العرب الذين عبدوا أصناماً وأوثاناً مع إيمانهم بالله ، مدَّعين أنهم يعبدونهم كوسطاء بينهم وبين الله يُقرِّبونهم إلى الله زلفى .

ومعنى هذا أنهم يُثبتون لآصنامهم وأوثانهم سلطاناً مع الله عَزَّ وجَلَّ ، فواجه القرآن هذه الظاهرة « الشركية » مواجهة حكيمة مؤداها الإقناع العقلى الناتج عن دليل واقعى محسوس ومشاهَد ، فقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (١) .

هذه الآية الحكيمة تمثل دوراً فى الدعوة بالوسائل السلمية لنبذ شبهة الإشراك ، وتمكين عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب ، فهى تُرقِّق المشاعر وتُهذِّب الوجدان ، وتفتح القلوب الغُلْف ، وتخاطب العقول المستنيرة وتضع أمامها الحقائق فى رفق ولين ، لتقفز منها - بعد أن تتأملها - إلى الحق الذى لا مفر منه ، وتسد - بذلك - ثغرة من المنافذ التى ينفذ منها الشيطان إلى طوايا النفوس فيملأها أوهاماً وأضاليل ، فالمشركون - كما حكى القرآن عنهم - يتذرعون فى عبادتهم للأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله ، جاء ذلك صريحاً فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ..** ﴾ (٢) .

وهم بهذا يرفعون أصنامهم إلى درجة أن يكونوا نافذى الكلمة عند الله .

هذا الاعتقاد الضال تواجهه آية الروم السالفة الذكر مواجهة هادئة ، ولكنها قوية السلطان ، بالغة التأثير :

فالمثل المذكور فيها منتزَع لهم من أحوال أنفسهم ، كما قال سبحانه : ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ .

---

(١) الروم : ٢٨ (٢) يونس : ١٨

أما صورة المثل فقد استُهلَّت باستفهام إنكارى هكذا : ﴿ **هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ .

أى : هل لكم من عبيدكم الذين تملكونهم شركاء فى ما آتيناكم من أموال تخافونهم إذا تصرفتم فى أموالكم دون مشورتهم أن يغضبوا عليكم ويردوا تصرفاتكم التى تصرفتموها فى أموالكم بغير مشورتهم ، كما تخافون أنفسكم إذا شارك بعض أحراركم بعضاً آخر من الأحرار ؟ إن كان ذلك واقعاً فعلاً فى حياتكم فيصح أن الأصنام تدفع عنكم ما يُراد بكم من عذاب الله .

أما إذا لم يكن واقعاً ، وأنكم لا تقيمون وزناً لعبيدكم فى كل تصرفاتكم ، فكذلك الله لا يخشى أحداً من مخلوقاته ، فليس للأصنام عنده شفاعة ، ولا يستطيعون أن يردوا من قضاء الله شيئاً : ﴿ **لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ** ﴾ (١) .

لقد وضع هذا المثل المشركين أمام باطلهم وجهاً لوجه فما عساهم أن يقولوا ؟ إن قالوا : لنا شركاء مما ملكت أيماننا ؛ كابروا وخدعوا أنفسهم ، وإن قالوا : ليس لنا من عبيدنا شركاء ؛ لزمهم القول ببطلان الشرك ، ولم يبق أمامهم إلا التوحيد الخالص ، إن أرادوا لأنفسهم الخير ، وإن لا فقد لزمتهم الحُجَّة ، وكانوا من حصب جهنم هم لها واردون ، وفيها خالدون .

لو لم يكن فى القرآن إلا هذا القدر من مواجهة شبهة الإشراك بالله - سبحانه - لما كان للشرك أمامها مثقال ذَرَّة من صدق ، فما بالك والقرآن حافل بصور مواجهة الشرك والتصدى له مئات المرات ، فى أساليب بيانية رائعة ؛ وحجج عقلية وعلمية قاطعة .

وفى كل موضع من مواضع المواجهة ، يهدى القرآن العقول ، وينير لها الطريق ، حتى لكأنها تشاهد الحق عَيَاناً جهاراً . ولولا هدى الله فى كتابه

---

(١) الأنبياء : ٢٣

العزيز لطال الصراع فى هذا الميدان ، الذى لا يملك القول الفصل فيه إلا الوحى الأمين .

إن العقيدة الحقة ، فى الله جاء بها وحماها القرآن العظيم ، وإنك لن تجد على وجه الأرض موئلاً لعقيدة التوحيد - بعد أن حُرِّفت أمانة الوحى من قبل - إلا القرآن ، والقرآن وحده .

* * *

● مواجهة القرآن للإلحاد فى صفات الله :

اضطرب التفكير العقلى اضطراباً بالغاً فى تصور صفات الله ، وكان مما رصدناه من مظاهر ذلك الاضطراب ما مرَّ بنا من قول « أرسطو » أن الله لا يعقل إلا ذاته ، وأنه لا يعلم الكليات ولا الجزئيات ، وإذا التمسنا لـ « أرسطو » بعض العذر فى هذا الاضطراب ، فإن الفلاسفة الإسلاميين لا نملك لهم أدنى عذر حين جاروا « أرسطو » فى بعض ما قال ؛ لأن « أرسطو » اجتهد ولم يكن لدى قومه رصيد من هدى الله . أما الفلاسفة الإسلاميون فكان وحى الله الأمين ماثلاً بين أيديهم فأداروا له ظهورهم وخالفوه ، وإن أجروا تعديلاً ملموساً على مذهب « أرسطو » .

قال « أرسطو » : إنَّ الله لا يعلم الكليات ولا الجزئيات ، ولا يعنيه من أمر الكون شئ : لا تدبير ولا إحياء ولا إماتة !

فجاء الفلاسفة الإسلاميون وتابعوه على أنَّ الله لا يعلم الجزئيات ، وخالفوه فى أنه يعلم الكليات فحسب .

أخطأ « أرسطو » وأخطأ الفلاسفة معاً ، وإن تفاوتت درجات الخطأ بينه وبينهم ، فالله فوق ما قالوا وما تصوَّروا . وحديث القرآن فى تقرير صفات الله قاطع لكل هذه الأوهام .

وحسب طُلاب الحق فى عقيدة الألوهية أن يقرأوا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

إنَّ الكون كله : كلياته وجزئياته مهما تناهت فى اللطف والصغر معلومة لله ، قبل أن تكون ، وحال أن تكون ، وبعد أن تكون .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

وتأمل الإعجاز العلمى فى : ﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ ﴾ ، أى من مثقال الذَرِّ ، فقد كان العلم يعتقد أن « الذَرَّة » هى أصغر حجم فى الوجود ، ثم تطور العلم وتمكن من تحطيم « الذَرَّة » حتى تصير شعاعاً ، فجاء القرآن الكريم وأشار إلى هذا التطور العلمى فى شأن « الذَرَّة » وقرر أن علم الله بالكائنات يعلم دقائق الأشياء وعظائمها صاعداً من « الذَرَّة » إلى ما هو أكبر منها ، ونازلاً من « الذَرَّة » إلى ما هو أصغر منها مهما تناهت فى الصغر وإن صارت شعاعاً وضوءاً .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

أو يقرأوا قوله تعالى حكاية عن قول لقمان الحكيم لابنه : ﴿ يَا بُنَىَّ إِنَّهَا إِن

---

(١) الأنعام : ٥٩ (٢) يونس : ٦١ (٣) الحديد : ٤

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٢) .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

هذا هو علم الله المحيط بالوجود كله ، كلياته وجزئياته : فلن يقع شئ فى الوجود إلا بعلمه ، فانظر ما بين حقائق الوحى وأوهام العقل غير المهتدى بالوحى من فروق ، وإنما وقع العقل فى ما وقع فيه من أوهام ؛ لأنه تخطى دائرة عمله وخاض فى ميدان لا بد له فيه من هادٍ يهديه ، ورائد يأخذ بيده ، وهو الوحى الأمين .

ولو كان العقل - وحده - هو وسيلة البَشر لمعرفة الله تعالى وجوداً وصفاتاً لتفرَّقت بهم السبل ، ولسيطرت عليهم الحيرة ، وكانوا كمن يريد عبور محيط هادر لا تحده الأبصار بواسطة حزمة من الحطب لا تلبث أن تفرقها الأمواج ، وتتقاذفها الأعاصير ، فكان من لطف الله ورحمته بعباده أن أرسل رسله ، وأنزل عليهم الكتاب هادياً إلى التى هى أقوم من أمور الدنيا والدين .

❊ ❊

---

(١) لقمان : ١٦ (٢) سورة ق : ١٦ (٣) المجادلة : ٧

● مواجهة القرآن لإنكار البعث الجسمانى :

الإيمان بالبعث من كبريات قضايا الإيمان المنجى ، وحين تناول القرآن الحكيم عرض هذه القضية تصدَّى لخطأ جسيم وقع فيه العقل المجرَّد منذ فجر التاريخ النبوى ، وهو إنكار البعث جملة وتفصيلاً .

وبعد نزول القرآن الكريم وقع بعض الفلاسفة الإسلاميين فى خطأ قريب الشبه بالخطأ القديم ، فقد أنكر هؤلاء الفلاسفة بعث الأجسام وقصروا البعث على الأرواح ، وشُبهتهم التى استندوا إليها فى إنكار البعث الجسمانى ، غير الشبهة التى استند إليها الأقدمون فى إنكار « البعث » على أى كيفية كان : جسمانياً أو روحياً ، أو هما معاً .

والقرآن فى مواجهته لهذه الظواهر أزال كل الشبهات التى استند إليها الفريقان معاً ، ومهَّد الطريق للإيمان الخالص من كل شائبة بعقيدة البعث ، وهو لم يفرض هذه العقيدة فرضاً ، وإنما أظهرها فى صورة بدهية سائغة تتقبلها العقول بكل يُسر وسهولة .

❊ ❊

● شبهة منكرى البعث كلية :

ذكر القرآن الأمين شبهة منكرى البعث كلية - جسمانياً وروحانياً - فى مواضع متعددة ، وبيَّن فى عبارات قصيرة بليغة فساد تلك الشبهة ؛ لإقامة الحُجَّة على المنكرين المعاندين ، ولتثبيت عقيدة المؤمنين وحمايتها من وساوس الشيطان . .

ومن المواضع التى ذكر القرآن فيها شبهة منكرى البعث كلية قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١) .

---

(١) الرعد : ٥

وقوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (١) .

ظاهر من حكاية القرآن لأقوالهم أنهم يرون البعث مستحيلاً عقلياً بعد أن يموتوا ويصبحوا عظاماً بالية ، وتراباً متناثراً . هذا ما يدل عليه قولهم الذى تقدَّم ، وفى مواضع أخرى يضيفون إلى هذا الاستدلال شبهة أخرى فرعية ، يؤكدون بها رأيهم فى نظرهم ، فقد حكى عنهم القرآن الكريم قولهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُواْ بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقولهم : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَن قَالُواْ ائْتُواْ بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

هذه الشبهة الفرعية تتلخص فى دعواهم أمام الرسل : أن يبعثوا آباءهم إن كانوا صادقين فى أن الله سيبعث الموتى من قبورهم ، وهذا تكذيب منهم بالبعث ، وكفر بالحياة الآخرة .

وقالوا فى موضع ثالث فى الآية الآتية : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ .. ﴾ (٤) .

كما حكى عنهم القرآن فى موضع آخر كفرهم بالحياة الآخرة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. ﴾ (٥) .

---

(١) المؤمنون : ٣٥ - ٣٧ (٢) الدخان : ٣٤ - ٣٦ (٣) الجاثية : ٢٥

(٤) النحل : ٣٨ (٥) سبأ : ٣

وقال سبحانه حاكياً عنهم : ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ..** ﴾ (١) .

إذا نظرت فى مجموع هذه الآيات خلصت إلى أن استحالة البعث عند هؤلاء الكفار استحالة عقلية بنوها على أصل وفرع :

الأصل : هو استحالة إعادة الحياة بعد الموت وما يعترى الأجسام من فناء وتبدُّل .

والفرع هو : لو كان البعث ممكناً فلِمَ لم يُبْعث آباؤهم بعد موتهم ؟ ثم انتهت عقولهم إلى أن دعوى البعث أسطورة من أساطير الأوَّلين !!

* *

● صورتان من المواجهة المفحمة :

أبطل القرآن الحكيم شبهات منكرى البعث ، وقضى عليها قضاءً مبرماً . وتوخياً للإيجاز ، نكتفى بذكر صورتين للمواجهة المفحمة وردتا فى القرآن العظيم .

* الصورة الأولى :

﴿ **وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..** ﴾ (٢) .

من منهج القرآن الأمين حين يتصدى لدعاوى خصوم الدعوة أن يذكر أقوالهم وشبهاتهم بكل أمانة وصدق ، ثم يكر عليها فيجعلها وهماً من الأوهام ، وفى هذه المحاورة ذكر القرآن شبهة منكرى البعث الذين استندوا فى هذا الإنكار إلى استبعاد إعادة الحياة بعد صيرورة الميت عظاماً ورُفاتاً ، ثم

---

(١) التغابن : ٧ (٢) الإسراء : ٤٩ - ٥١

يقول لهم فى بداية المواجهة : ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ .

استبعدوا البعث وقد صاروا عظاماً ورُفاتاً . هذه شبهتهم ، والعظام والرُفات مادتان للإنسان وليستا غريبتين عليه ، فدعاهم القرآن أن يكونوا حجارة أو حديداً ، لأن الحجارة والحديد مادتان غريبتان عن الإنسان ، أو يكونوا أى خلق آخر لا صلة له بما كانوا عليه وهم أحياء . قال الله لرسوله أن يقول لهم هذا ، فإذا قالوا له : مَن يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً ، أو أى خلق آخر مغاير لحقيقتنا من كوننا عظاماً ولحماً ودماً ؟ كان الجواب : ﴿ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

هذه الجملة المكونة من أربع كلمات قصار نسفت شبهاتهم نسفاً ولم تبق لها أى أثر .

فهم قد استعظموا إعادة الحياة إليهم ، وقد كانوا أحياء لهم أصل فى الوجود ، فكيف يعجز مَن خلقهم أول مرة من العدم عن إعادة الحياة إليهم بعد أن كان لهم وجود ظاهر ، ومثال محسوس ؟

القرآن - هنا - يضع أمامهم حقيقة من حقائق العقل يُسلِّم بها ولا يملك أدنى شبهة لعدم التصديق بها ، فالعقل لا ينكر على مَنْ صنع شيئاً ثم زال أن يعيده مرة أخرى ؛ لأن صورته حاضرة فى ذهنه ، وقدرته قد مكَّنته من صنعه أولاً . فالإعادة - إذن - أيسر وأهون .

فلو أن إنساناً رسم شكلاً هندسياً بديعاً ، ونحن ننظر إليه وهو يرسمه ، ثم محاه وقال : سأرسمه مرة أخرى كما كان ، فإننا لا نشك فى قدرته على رسمه بدليل أنه رسمه فى مرة سابقة .

أو قام آخر بحل معادلة رياضية معقَّدة ، ثم محا ما كتب وقال : سأعيد

الحل مرة أخرى ، فمَن يملك تكذيبه فى هذه الدعوى ؟ لا أحد يملك ذلك من العقلاء إلا مَن أصيب بخلل فى عقله .

وهكذا كان قوله تعالى : ﴿ **الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ دليلاً عقلياً مفحماً أبلغ ما يكون الإفحام ، إنَّ قدرة الله على الخلق الأولِ هى دليل قدرته على الخلق الثانى ، هذا هو حكم العقل السليم ، فهل - بعد هذا - يصبح لمنكرى البعث حيلة فى الاستمرار على الإنكار ؟ كلا . . وألف ألف كلا .

وهكذا ينسف القرآن فى هذه المواجهة الوجيزة أباطيل المبطلين ، ويُلزمهم الحُجَّة ، ويذرهم فى غيهم يعمهون .

* *

*** الصورة الثانية :**

﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْىِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ (١) .

ضارب المثل فى الآية هو العاص بن وائل ، جمع عظماً وأتى به رسولَ الله ﷺ ثم فتت العظم وقال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » ، ثم نزلت الآيات من آخر سورة يس .

استبعد هذا الكافر إحياء الموتى وقد بليت العظام ، فجاءت الآيات المذكورة تدحض شبهته بدليل عقلى فطرى :

﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ**

---

(١) يس : ٧٨ - ٧٩

وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

صورة هذه المواجهة تتفق فى المبدأ العام مع الصورة الأولى ، إذ هما معاً تضعان أمام العقل الدليل والبرهان المقنع على أنَّ الله قادر على إحياء الموتى بدليل أنه خلقهم أولاً ولم يكن لهم وجود ، فكيف يعجز أو يستحيل عليه إحياؤهم مرة أخرى بعد أن كان لهم وجود ومثال محسوس ؟

وتضيف هذه الصورة دلائل أخرى تتضافر على إقناع العقل بصحة البعث ، وتمحو شبهات منكريه .

وهذه الدلائل كما جاءت فى الآيات :

١ - فى الآية التى صوَّر القرآن فيها شبهة منكر البعث جاءت هذه العبارة الحاسمة البليغة : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . . أى أن ضارب المثل حين استبعد على الله إحياء الموتى نسى أن الله خلقه وجعله بَشراً سوياً . فكونه مخلوقاً لله من العدم وبدون سبق وجود دليل قاطع على صحة الإحياء مرة أخرى ، ولو كان هذا المنكر للبعث تأمل هذا الواقع لأقلع عن إنكاره . وفى هذا تعريض بغباوة المنكر الذى حكى القرآن الأمين قوله .

٢ - أن الله قادر على كل خلق ، وليست قدرته ولا علمه مقصورين على خلق الإنسان وحده .

٣ - وأن من عجائب خلقه أن جعل لعباده من الشجر الأخضر ناراً ، والخضرة والنار ضدان .

---

(١) يس : ٧٩ - ٨٣

والآية تشير إلى حقيقة من حقائق العلوم التى اكتشفت بعد نزول القرآن بقرون طوال ، وهى تولد « الأوكسوچين » فى عملية التمثيل الضوئى من النباتات المختلفة ، و« الأوكسوچين » عامل مساعد على اشتعال النار ، وإذا خلا منه مكان فمن المحال أن تتولد النار .

٤ - أن الله خَلَق السموات والأرض ، وخَلْقهما أكبر من خلق الناس ، فكيف يعجزه إعادة الحياة إلى الموتى .

٥ - أن الله إذا أراد شيئاً كان ذلك الشئ بمجرد أن يقول له : كن .

٦ - أن الله هو المصرِّف للكون كله : إيجاداً وإعداماً ، وإحياء الموتى صورة يسيرة من تصرف الله فى كونه العظيم .

وهكذا يسَّر القرآن للعقول حقيقة الإيمان بالبعث ، ودحض فى رفق وحكمة جميع الشبهات ، ولم يدع لمنكرى البعث ذَرَّة من شبهة تصلح متمسكاً لهم فى كفرهم .

ثم يؤكد القرآن هذه الحقيقة فى مواضع أخرى منها : ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ (٢) .

ثم يقول : ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (٣) .

إن إعادة الحياة إلى جميع الموتى من لدن خلق آدم إلى قيام الساعة هى فى قدرة الله كخلق نفس واحدة وكبعث نفس واحدة .

---

(١) الأنبياء : ١٠٤ (٢) الأعراف : ٢٩ (٣) لقمان : ٢٨

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (١) .

❊ ❊

● مواجهة القرآن لشبهة الفلاسفة :

أشرنا من قبل إلى أن الفلاسفة ينكرون البعث الجسمانى ، وأن شبهة هذا الإنكار عندهم غير شبهة الدهريين الذين فرغنا من دحض القرآن لشبهاتهم ، وأن الفلاسفة أنكروا البعث الجسمانى لأن الأجسام - كما قالوا - غير متناهية ، وأن المكان متناه لا يتسع لجميع أجسام الموتى إذا أعيدت إليها الحياة مرة أخرى ، وفى العنوان الذى أثبتناه : « مواجهة القرآن لشبهة الفلاسفة » شىء من التسامح لأن الفلاسفة ذهبوا هذا المذهب بعد نزول القرآن ، والمواجهة إنما تكون لموقف سابق على نزول القرآن أو مصاحب له . بَيْد أن فى القرآن آية لو كان الفلاسفة قد تأملوها لما ساغ لهم أن يقولوا ما قالوا . هذه الآية تدحض - مقدماً - ما قاله الفلاسفة بعد انتهاء عصر النزول . وهى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢) .

اختلف المفسِّرون فى تبديل الأرض والسموات ، والأمر عندهم يدور حول معنيين : إما تبديل فى ذوات الأرض والسموات ، وإما تبديل فى أوصافها . والمعنى يتسع لأبعد مما قاله المفسِّرون ، فليس بمنكر أن يراد بالتبديل المنصوص عليه فى الآية أن يكون الامتداد والتوسيع ، يدل على هذا قوله فى وصف الجنة : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) الزمر : ٦٨ (٢) إبراهيم : ٤٨ (٣) آل عمران : ١٣٣

فإذا كان عرض الجنة هو امتداد السموات والأرض فما بالنا بالطول كيف يكون ؟

كما جاء النص على التوسيع صريحاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١) .

وأيّا ما كان الأمر فإن شبهة الفلاسفة فى إنكار البعث الجسمانى شبهة خفيفة الوزن ، بل هى وهم خالص وقع فيه هؤلاء المفكرون ذوو العقول الكبيرة . وهى - فى الوقت نفسه - دليل على أن العقل - وحده - ليس محل ثقة فى تصور الغيبيات أو ما وراء الطبيعة . فلا بد له - إذن - من هادٍ يهديه .

* *

● **تعقيب :**

علمنا مما تقدَّم كيف اضطربت العقول فى تصورها للأمور الغيبية وفى مقدمتها عقيدة الألوهية ، ثم البعث ، وقلنا : لو كانت وسيلتنا الوحيدة فى شأن العقيدة هى العقل لما اهتدت البَشرية إلى عقيدة صحيحة تطمئن لها القلوب ، ويتحقق بها الإيمان المنجى ، وتعيَّن أن يكون هادينا إلى العقيدة الحقة هو وحى الله : « الإيمان » ، وأن دنيا الناس لا بد لها من دين الله وهداه ، ليستقيم أمرها ، ويحيا مَن حيى عن بيِّنة ، ويهلك مَن هلك عن بيِّنة .

فعقيدة الألوهية لا تُعرف حق المعرفة إلا إذا اهتدى العقل بما أنزل الله ، فإذا زهد العقل فى وحى الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ ضَلَّ وأضلَّ .

وكذلك الحال فى عقيدة البعث ، فقد قاد الوحى الصادق العقل فيها ، وأزال كل شبهة تتعلق بها ، فقد وقفنا على حقيقة شبهات منكرى البعث قبل الفلاسفة الإسلاميين ، وأنهم كانوا يرونه مستحيلاً عقلياً .

---

(١) الذاريات : ٤٧

فجاء الوحى الأمين ، ووضع أمامنا حقيقتين بارزتين :

أولاهما : أن البعث مطلقاً : جسمانياً وروحانياً - من حيث حكم العقل - ممكن عقلياً ، وليس مستحيلاً عقلياً كما توهم الدهريون .

والثانية : أن البعث من حيث ورود الخبر الصادق به إنما هو واجب محتم الوقوع حسبما هو فى علم الله .

وبهذا يلتقى حكم العقل وحكم الشرع فى أخطر قضية من قضايا الإيمان . . بعد الإيمان بالله وكتبه ورسله .

وصدق الله العظيم القائل لخاتم الرسل : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (١) .

* * *

(١) الشورى : ٥٢

المجال الثانى : التشريع

● **تقديم :**

عرفنا مما تقدم أن مجال العقيدة الدينية ، ليس مجالاً عقلياً خالصاً ، وأن العقل إذا انفرد بالبحث فيه كان خطؤه أكثر من صوابه ، وأن اختلاف العقول فى هذا المجال قد يؤدى إلى القول بالشئ ونقيضه ، وقد يشط العقل شططاً شنيعاً فى كثير من تصوراته للأمور الغيبية أو ما وراء الطبيعة . فكان لا بد للعقل من هادٍ يهديه ويرشده ، ذلك الهادى هو وحى الله الصادق الأمين . والآن نوجز الحديث عن مجال آخر لا يصلح العقل للخوض فيه إلا بقيادة الوحى الأمين . . ذلك المجال هو :

التشريع للدنيا والدين

بعد أن تمتلئ القلوب بالعقيدة الصحيحة تكون قد وضعت أقدامها على أول الطريق المستقيم ، ولكن لا بد من إنارة هذا الطريق بوضع مبادئ وقيم للسلوك الإنسانى ؛ لأن معترك الحياة ضخم وعميق ومعقد ، تختلط فيه الأمور وتتشابه ويصعب التمييز بينها ، فلا يدرى الإنسان ماذا يفعل ، ولماذا يفعل ؟ ولا ماذا يترك ، ولماذا يترك ؟ ومتى يكون العمل واجباً ، ومتى يكون مرجحاً ؟ ومتى يستوى طرفا العمل والترك ؟ ولا يدرى متى يكون ترك العمل واجباً ، ومتى يكون أنزل من الوجوب ؟

هذه المجالات الخمسة لم يؤهِّل العقل للانفراد بتحديدها ، وهو وإن أدرك بعضها جهل أكثرها ، وحتى فيما يُتاح له إدراكها فإن إدراكه فيها قاصر قصوراً ملحوظاً .

وقبل أن نُبيِّن الأهمية القصوى لدين الله فى مجال التشريع ، نعرض فى

إيجاز صوراً من التشريع العقلى الوضعى لتتضح لنا مدى حاجة البَشر إلى دين الله ووحيه ورسوله ، فى هذا المجال الحيوى المرتبط بالسلوك العملى لحركة الحياة الإنسانية .

* *

● صور من التشريعات الاجتماعية :

نقصد من التشريعات الاجتماعية ما يتصل بحقوق الإنسان ، وبدهى أن التشريع فى كل أُمة كان ظل عقيدتها ، وأن العقيدة الهابطة يصدر عنها تشريع هابط منحط مثلها ، لأن الظل لا يستقيم إذا كان مصدره معوجاً .

وقد حفظ لنا وعى التاريخ نماذج منحطة جائرة كانت تشيع فى بعض الأمم القديمة ومنها ما لا يزال شائعاً فى بعض البيئات المعاصرة :

* الهند :

الكتب المقدسة للهنود البرهميين تقسم الناس أقساماً متباينة فى الفضل والضعة ، فتذكر أن « براهما » خلق البرهميين من فمه ، والفم أطهر ما فى جسم الإنسان ، وخلق الكشتريين من ذراعه ؟ وخلق الفيسائيين من فخذه ، ثم خلق السودرائيين من قدمه .

وأن أفضل هذه الطبقات هم البرهميون ، يليهم الكشتريون ، ثم الفيسائيون ! أما السودرائيون فهم أحط الطبقات .

وبناء على هذا التقسيم وزَّعوا الوظائف على الوجه الآتى :

فالبرهميون - أعلى الطبقات - لهم الوظائف القيادية العليا .

والكشتريون لهم وظائف الحرب والقتال ورعاية الأمن .

والفيسائيون يختصون بفلاحة الأرض وتربية الماشية .

أما السودرائيون - أحط الطبقات - فلهم وظيفة واحدة هى أن يكونوا عبيداً

وخدماً للطبقات الأخرى . وهم أنجاس لا يجوز لمسهم ولا الأكل معهم ، وعلاقة المجتمع معهم علاقة المالك بالمملوك ، أو السيد بالعبد !!

❊

❊ اليونان :

لم يكن التشريع اليونانى يختلف عن التشريع الهندى إلا قليلاً ، ففى التشريع الهندى البرهمى كانت الطبقات أربعاً . أما اليونانى فمكوَّن من طبقتين فحسب : طبقة عليا فاضلة هم اليونانيون وحدهم ، وطبقة سفلى منحطة هم مَن عدا اليونانيين من شعوب الأرض ، وبنوا هذا التقسيم على عقيدة كاذبة ، هى أن الآلهة خلقت فصيلتين من الناس :

فصيلة كرَّمتها بالعقل والإرادة والحرية ، وهم اليونانيون !

وفصيلة مسلوبة العقل والإرادة والحرية ، قريبة من الحيوانات العجماء ، وهم الشعوب الأخرى .

الفصيلة الأولى هى خليفة الآلهة فى الأرض ، والفصيلة الثانية خلقت لتكون عبيداً وخدماً للفصيلة الأولى .

الفصيلة الأولى لها الوظائف العليا الراقية ، أما الفصيلة الثانية فلا عمل لها سوى الأعمال الجسمية الشاقة .

❊

❊ الرومان :

حذا التشريع الرومانى حذو الهندى واليونانى ، بَيْدَ أنه إلى اليونانى أقرب ، فالرومان هم الطبقة الراقية ، وغيرهم طبقة وضيعة ، وأنهم مخلوقون ليكونوا أرقَّاء وخدماً دائماً لأسيادهم الرومان .

❊

❊ أهل الكتاب :

وأهل الكتاب - يهوداً ونصارى - رغم ما جاءتهم به رسلهم وكتبهم المقدَّسة فإنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولا يرون لغيرهم ما يرونه لأنفسهم - وبخاصة اليهود - من الفضل والقداسة .

❊

❊ العرب :

ولم يسلم العرب - قبل الإسلام - من هذه التفرقة العنصرية ؛ فقد كانوا يرون غيرهم من الشعوب أُمماً وضيعة ، ناقصة الإنسانية ، ويسمون مَن عداهم بـ « العجم » ، وينظرون إليهم نظرة احتقار واستخفاف ، وكانوا يضنون ببناتهم أن يتزوجن من غير العرب ، ويرون أن مصاهرتهم لغيرهم إهانة إلى قبائل العرب جميعاً ، وموقعة « ذى قار » دارت بين العرب والفُرس بسبب هذه المصاهرة .

هذه صور سريعة للتشريع الوضعى العقلى ، سقناها شواهد على أن التشريع ليس من مجالات العقل ، وأن العقل حين مارس أنماطاً من التشريع ضلَّ سواء السبيل ، والنظر العابر فى النماذج التى سقناها يرينا أن حقوقاً عظيمة للإنسان أهدرت فى هذا التشريع الذى لم يستند إلى خطة حكيمة فى هذا المجال . ومن تلك الحقوق التى أهدرت فى النماذج المذكورة ثلاثة حقوق هى سمة كل تشريع سام ، وهى :

١ - المساواة . ٢ - الحرية . ٣ - العدل .

وحين يخلو تشريع ما من هذه الحقوق ، يصبح نظاماً همجياً خالياً من كل احترام أو ولاء صادق . ويقوم فى لُحْمته وسُدَاه على الأنانية والعنصرية ، ويحمل بين ثناياه عوامل هدمه وتدميره .

❊ ❊

● صور من تشريعات نظم الحكم :

مُنِى العالَم قديماً بأنماط شَـتَّى من نظم الحكم ، وعلى الرغم من أن بعض الشعوب عرفت النظام الديمقراطى فإن واقع الحكم كان يتنافى مع هذا النظام ، فوراثة الحكم كانت هى السائدة بالنسبة للرئيس الأعلى ، أما معاونوه فكانوا يُختارون على أسس الحسب والنسب وليس على أساس الأصلح ، وكان ذو الحسب والنسب تُحفظ لهم الوظائف العليا بلا عمل يؤدونه ، والرئيس الأعلى - ملكاً أو أميراً - هو صاحب الحكم المطلق فى شئون الرعية ، سواء فى ذلك الدول المجوسية كالفُرس ، أو الكتابية كالروم والبلاد التى كانت تدور فى فلكها .

وأسوأ ما كان معروفاً فى تلك النظم أن « الحاكم » له كل حق على المحكومين وليس عليه أدنى حق لأحدٍ من الرعية .

ويرى بعض الكاتبين - وهو على حق - أن النظام الديمقراطى لدى الحكومات القديمة التى عرفته لم يكن نظاماً موضوعاً لتحديد الحقوق والواجبات الإنسانية ، بل كان إجراء لحماية الحكام من الأخطار الداخلية والخارجية ، وأن الحكومات نفسها كانت تهدف إلى مصلحة الحكام ، ولا تقيم وزناً لمصلحة المحكومين .

أما الديمقراطية التى معناها : حكم الشعب للشعب ، فلم يكن له وجود فى الواقع .

وحتى فى الفكر السياسى الدينى لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - انحرفت نظريات نظام الحكم انحرافاً خطيراً : فرفعوا الحاكم إلى درجة الوكالة عن الله فى الحكم ! أو الحاكم مفوَّض من الله بالحكم فهو ظل الله فى الأرض .

هذه الاتجاهات تجعل الحاكم طاغوتاً هبط من السماء ، ومما زاد الطين بَلَّة أن يُرى هذا الحاكم معصوماً من الخطأ فى القول أو فى الفعل !

ونسأل : أين دور المحكومين أو حقوقهم فى ظل هذه النظم ؟ والجواب الحتم : لا دور لهم ولا حقوق ، وإنما عليهم السمع والطاعة بلا أدنى نقاش أو تردد !

وهكذا تظل الرعية فى ظل هذه النظم قطعاناً من الماشية لا تملك رد سكين شحذها راعيها لذبحها ، ولا يرثى لها أحد إذا قطعت أعناقها .

ولو ظلّ العالَم محروماً من هدى الله ودينه إلى الآن لظل رقيقاً لطائفة من الناس ، لهم كل شئ فى الحياة وليس عليهم أى شئ للحياة .

* *

● صور من التشريعات الكتابية :

المقصود من التشريعات الكتابية : النظم التى اشترعها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، مما ليس له أصل فى الكتب المنزَّلة على أنبيائهم .

* ومن ذلك أنهم اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً يعبدونهم من دون الله ، والمراد من هذه العبادة هى طاعتهم فى ما يُشرِّعون لهم من تشريعات مخالفة لدين الله ، وليس المقصود منها الركوع والسجود .

* ومنه أن اليهود يُحلِّلون الإقراض بالربا مع غير اليهود ، أما مع اليهود فالإقراض يكون بدون ربا .

* ومنه أن اليهودى إذا احتاج وباع مسكنه ليهودى آخر ، فإن وجد ثمنه قبل مرور عام ردَّ إليه الثمن وأخذ مسكنه . وإن كان المشترى أجنبياً - غير يهودى - ردَّ إليه الثمن متى وجده ولو بعد سنين طوال ، وله أن يُقدِّر أجرة عن سنة ظلَّ المسكن فيها تحت يد المشترى الأجنبى ، ثم يخصم جملة الإيجار من الثمن الذى قبضه ويرد إليه باقيه !!

* وإذا تزوجت يهودية رجلاً غير يهودى صارت نجسة وحقيرة ! وحرام عليها أن تأكل طعام اليهود ، فإذا مات زوجها أو طلَّقها عادت إليها الطهارة

مرة أخرى إذا لم تكن أنجبت من الزوج الأجنبى أولاداً ، أما إذا أنجبت فإنها تظل نجسة حقيرة ، وإن مات الزوج أو طلَّقها !!

* واليهودى إذا تزوج أجنبية - مسلمة أو نصرانية - صار نجساً حقيراً !

* إن الرب - عندهم - جعل كل الشعوب من غير اليهود وكل ثرواتهم خبزاً لليهود شعب الرب المختار !

أما النصارى . . فمن بدع التشريع - عندهم - تقديس البابوات وأنهم معصومون من الخطأ القولى والفعلى ، وأنهم وحدهم يملكون تفسير الكتاب المقدَّس ، ولهم حق مخالفته ، فالرأى والحكم لهم ، وأن رجال الدين يملكون حق التحريم والتحليل ، فما رأوه حلالاً كان حلالاً فى السماء ، وما رأوه حراماً كان حراماً فى السماء وإن خالف الأناجيل المقدَّسة عندهم .

وأن العاصى لا تُقبل منه توبة إلا إذا جلس أمام « القس » على كرسى الاعتراف ، وأباح له بكل خطاياه !!

ومهزلة صكوك الغفران شاهد آخر على تردى التشريع عندهم ، وأصدق وصف لخرافة صكوك الغفران أن رجال الدين النصرانى كانوا يبيعون « الجنة » فى المزاد العلنى » فمن يدفع كثيراً يملك قصوراً فاخرة فى الجنة ، ويُعْطَى « صك » مكتوب وموقع عليه من البائعين ، ليتسلم حصته التى اشتراها من الجنة بعد الموت مباشرة !

ومن المضحك أن مَن يملك صكاً من « صكوك الغفران » يصبح غير مكلَّف بشئ من الأوامر والنواهى ، فليفعل من المعاصى ما شاء لأنه صار مغفوراً له غفراناً أبدياً !!

* *

● صور من التحليل والتحريم عند العرب :

والعرب قبل الإسلام حينما تصدُّوا للتشريع أتوا بكل حمق وجهل ، وأبرز ما حكاه القرآن عنهم ما ورد فى سورتى الأنعام والمائدة ، حيث كانوا يُحرِّمون أنواعاً من الماشية فلا تُذبح ولا تُؤكل ، وكانوا يُحلِّلون أنواعاً لذكورهم ويُحرِّمونها على إناثهم ، وإذا بحثت عن عِلَّة للتحليل أو التحريم أعيتك الحيل ، ثم رجعت ولم تفهم شيئاً قط يصبح به المحرَّم حراماً فعلاً ، ولا المحلَّل لِمَ كان حلالاً مرة وحراماً أخرى ؟!

هذا الاضطراب فى النماذج التشريعية التى أوجزنا لك الحديث عنها ، سبب الأسباب فيه انفراد العقل بالخوض فيها بلا هادٍ يهديه ، والعقل مهما عظم فإنه لا يدرك - وحده - علل التحريم والتحليل . حتى الرسل لم يكونوا يملكون تحليل شئ أو تحريمه إلا بوحى من الله أو إلهام فى قوة الوحى المنزَّل .

فكما أن الوحى هو المصدر الرئيسى الذى تُتَلقى عنه العقائد الدينية أصولاً وفروعاً ، ولا يعلو صوت على صوته فى بيانها وتقريرها ، فإنه هو المصدر الوحيد فى شئون التشريع ، لأن الله وحده هو الذى يعلم المصلح من المفسد ، والعقل يتلقى عنه مبادئ التشريع العام والخاص كما تلقَّى عنه أمور العقيدة سواءً بسواءٍ .

* * *

● أقسام النشاط البَشرى فى التشريع الإلَهى :

حصر التشريع الإلَهى النشاط البَشرى كله فى خمسة أقسام يمكن وضع ضوابط لها فى الرموز الآتية :

١ - **افْعَلْ** : وهو فِعْل أمر يندرج تحته نوعان من النشاط البَشرى هما :

(أ) **الواجبات** : وهى الأعمال الواجب الإتيان بها من الفرائض الدينية

كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، والواجبات الأخرى كالسعى على المعيشة والجهاد إذا وجب ، والتزام الصدق فى الأقوال والوفاء بالعهود .

(ب) **المندوبات** : وهى الأمور التى يترجَّح عملها على تركها من أبواب الخير كالإحسان فى المعاملات ، والتطوع فى العبادات ، والازدياد من تحصيل المعارف والعلوم ، والإكثار من التصدق على المحتاجين ، وذلك لأن أبواب الخير واسعة وليس فى استطاعة إنسان أن يفعل كل الخير ، فليأت منه بما يستطيع .

٢ - **لا تَفْعَل** : وهو فعل مضارع دخلت عليه « لا » الناهية ، ويندرج تحت هذا الضابط نوعان من السلوك البَشرى :

(أ) **النشاط المحظور ممارسته** : وهو المحرَّم كخيانة الأمانة ، وعقوق الوالدين ، والإساءة إلى الجار ، وخلاف الوعد ، ونقض العهد . . إلخ . . إلخ .

(ب) **النشاط** الذى يكون تركه أولى من فعله كتأخير الواجبات عن وقتها ، والانتفاع بما فيه شبهة .

٣ - **افْعَلْ أو لا تفعل** : فعلا أمر ونهى ، ويندرج تحته نوع واحد من السلوك البَشرى ، وهو « المباح » الذى يستوى طرفا الإتيان والترك فيه . بمعنى أن تركه لا يترتب عليه عقاب لتاركه ، والإتيان به يُثاب عليه فاعله ، وليس المراد فى المباح استواء طرفى الفعل والترك مطلقاً .

تحت هذه الضوابط الثلاثة حصر الوحى أو التشريع الإلَهى كل ضروب النشاط البَشرى كبيرة وصغيرة . فلن يقع عمل أو يترك خارج هذه الضوابط .

* * *

الفروق بين التشريعين

ومعنى هذا أن التشريع فى دين الله محيط بكل حركة الحياة فى كل زمان ومكان . وهذا **أحد الفروق** الضخمة بينه وبين التشريعات البَشرية الوضعية التى لا تستند إلى مصدر حكيم من مصادر التشريع .

أما الفرق الثانى بين التشريع الإلَهى وبين تشريعات البَشر الوضعية ، فإن التشريع الإلَهى تشريع موضوعى عام لكل زمان ومكان وجنس ، بينما كانت التشريعات الوضعية الفعلية محاطة بحدود الزمان والمكان والجنس ، ولا تزال كذلك إلى عصرنا الحاضر ، فكل دولة تضع تشريعاً خاصاً بها لا يتعداها إلى غيرها .

والفرق الثالث : أن التشريع الإلَهى موضوع لتحقيق السعادة لكل الناس ، بينما التشريعات الوضعية العقلية تستهدف جماعة معيَّنة مرتبطة بحدود البيئة المكانية والزمانية والجنسية ، ولا يدخل فى حسابها غيرهم من البَشر .

ورابع الفروق : أن التشريع الإلَهى يرسم الطريق الواضح المستقيم لتحقيق الأمن والسعادة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، أما ما عداه من التشريعات البَشرية فلا يهتم إلا بجانب من جوانب الحياة الدنيا الضيقة .

وخامس الفروق : أن التشريع الإلَهى يقوم على منهج حكيم ودقيق ويتوخى المصالح الحقيقية العامة والخاصة فى كل التكاليف - عبادات أو معاملات أو سلوكيات . وأن لكل حكم تشريعى فيه علَّة من أجلها كان الحكم ، ولكل حكم تشريعى فيه حكمة تشريع هى ثمرة تطبيق الحكم والأثر المترتب عليه فعلاً وتركاً .

وسادس الفروق : أن التشريع الإلَهى مصدره هو الله المحيط علماً بكل

شئ ، فهو وحده يعلم ما يُصلح الحياة وما يُفسدها ، لا يعزب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، والتشريع البَشرى - أياً كان - مصدره العقل ، والعقل قاصرٍ عن الإحاطة بحقائق الأمور ، تلتبس عليه حيناً ، ويعمى عنها حيناً ، وما سبقت إليه الإشارة من التشريعات العقلية دليل قاطع للعقل نفسه بأنه غير مؤهَّل للتصدى لهذه المهمة التى هى من اختصاص العليم الخبير . فحاجة الناس إلى دين الله فى شئون التشريع كحاجتهم إليه فى أمور العقيدة . وأكبر نكسة يعيش فيها العالَم الآن - مسلمون وغير مسلمين - هى تعطيل شريعة الله ومنهجه القويم فى الحياة ، واستحداث شرائع وقوانين عقلية خطؤها أضعاف أضعاف ما فيها من صواب : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ (١) .

* * *

(١) المائدة : ٥٠

التشريع الإلهى

لا بد للإنسانية من التشريع الإلَهى لتنظيم الحياة تنظيماً حكيماً يرقى بها إلى أعلى عليين ؛ لأن لتشريع الإلَهى يوجه الجماعات والأفراد - دائماً - إلى التى هى أقوم ، والقرآن الحكيم قد أشار إلى أن هدى الله ودينه دعوة للحياة والعلم والتزكية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..** ﴾ (١) .

وليس المراد بـ « الحياة » فى الآية بعث الأرواح فى الأجسام ، بل المراد أن تعاش هذه الحياة الجسدية حياة أخرى فوق حياة الجسد ، حياة قوامها الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وطاعة الله ورسله فيما أمر أو نهى ، وابتغاء مرضاته فى كل ما نأتى وما نذر .

﴿ **هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ..** ﴾ (٢) .

﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ..** ﴾ (٣) .

ذلكم هو فضل هدى الله ودينه على مَن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، أما مَن أعرض عن هدى الله ودينه فلا حياة له إلا حياة الأنعام والدواب ، بل هم أضل من الأنعام والدواب ، وفيهم يقول الحق : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ (٤) .

---

(١) الأنفال : ٢٤ (٢) الجمعة : ٢

(٣) الإسراء : ٩ (٤) الأعراف : ١٧٩

بل هم ليسوا أحياء ، وإن أكلوا وشربوا ودَبُّوا على الأرض : ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** ﴾ (١) .

والتشريع الإلَهى يندرج تحته ثلاثة أنواع :

الأول : ما أنزل الله فى كتابه العزيز من أصول كلية للتشريع ، أو أحكام تفصيلية لبعض المشكلات ، وقد عُنِىَ بعض الفقهاء بتحديدها وشرحها فى كتب لهم تحمل عنوان : « أحكام القرآن » ، كما عُنِىَ بها المفسِّرون لكتاب الله العزيز كابن العربى والجصاص من القدماء ، وغيرهم من المحدَثين .

الثانى : ما صحَّت نسبته إلى رسوله الأمين من أقوال وأفعال ، وتقريرات لأقوال وأفعال وقعت على مرأى منه ومسمع ، فأقرها ولم يُنكرها على فاعليها وقائليها ، وقد عُنِىَ كثير من العلماء بهذه الأحاديث وأفردوا لها كتباً خاصة كالإمام مالك ، والزيلعى ، وابن حجر ، وابن خزيمة ، وابن دقيق العيد .

الثالث : الأحكام الاجتهادية للنصوص الاحتمالية المعنى ، والأحكام التى استنبطها الفقهاء للوقائع والمشكلات التى لم يرد نص تشريعى فى بيان حكمها . وهذا النوع هو أكثر أحكام الشريعة ، وهو وإن كان عملاً عقلياً ، معدود من التشريع الإلَهى لأن سنده إما كتاب الله ، أو سُنَّة رسوله ، وليس عملاً عقلياً خالصاً .

ومن هذا النوع العقوبات التعزيرية على الجرائم التى لم يرد نص تشريعى فى تحديد عقوبات معينة لها ، والأمر فيها منوط بالعلماء والأمراء :

العلماء يُحدِّدون العقوبات على ضوء الشريعة ، والأمراء يضعونها موضع التنفيذ .

---

(١) النمل : ٨٠

وكل ما يُشترط فى العقوبات التعزيرية أمران :

الأول : أن تكون العقوبة رادعة لمرتكب الجريمة .

والثانى : أن تكون مناسبة للجريمة .

فلا نوقع عقوبة شديدة على جريمة خفيفة ، ولا عقوبة خفيفة على جريمة شديدة .

وإلى هذه الأنواع الثلاثة يشير قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ..** ﴾ (١) .

فطاعة الله المأمور بها هى العمل بما فى كتابه العزيز .

وطاعة الرسول هى العمل بما صحّ سنده ومتنه من سُنَّته - صلى الله عليه وسلم .

أما أُولو الأمر فطاعتهم مشروطة بالتزامهم بما فى الكتاب والسُّنَّة ، ولذلك لم تفرد طاعتهم كما أفردت طاعة الله ورسوله ، بل أدرجت فى طاعة الله ورسوله ، وأُولو الأمر لا بد أن يكونوا من المؤمنين لقوله تعالى : ﴿ **وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ .. أى لا من غيركم .

فالعلماء مطالَبون فى كل عصر ومصر باستنباط الأحكام المناسبة لكل الوقائع والمشكلات التى تَجِدُّ وليس فى الكتاب ولا فى السُّنَّة نص قطعى الدلالة على حكمها ، فيجتهد العلماء فى استنباط حكمها مستندين إلى الكتاب والسُّنَّة وما قرره الأصوليون من قواعد بالنظر فيهما .

والأمراء مطالَبون بوضع ما يقرره العلماء موضع التنفيذ ، وليس لهم -

---

(١) النساء : ٥٩

العلماء والأمراء - أن يحتكموا إلى مصادر فى التشريع غير مصادر الشريعة الإلَهية . وكل قانون أو قاعدة تخالف أحكام الشريعة ومقاصدها فهى باطلة ، والعمل بها باطل .

والأعمال العقلية - أيّاً كانت - يجب أن تخضع فى التشريع لهدى الله ودينه ضماناً لصحة العمل ، وتجنباً للانحراف الذى كثيراً ما يقع فيه العقل إذا انفرد فى هذا المجال الدقيق .

عظمة التشريع الإلهى

مرَّت بنا نماذج من التشريعات البَشرية فى مجالات متعددة ؛ فى الاجتماع ، ونظم الحكم وغيرهما ، ومجرد النظر فيها يُظهر فسادها ويكشف قبحها وعجزها عن البقاء والاستمرار . وقد جاء هدى الله ودينه القويم ليزيح ذلك الباطل عن الوجود ، ويملأ تلك الفراغات الهائلة ، بتشريع سديد حكيم يتوخى الخير فى كل صوره ، ويدفع الشر فى كل أشكاله ، ويهيئ الجو لقيام حياة سعيدة راقية ، ونسوق فى السطور الآتية مُثُلاً من التشريع الإلَهى العظيم فى نفس المجالات المتقدمة التى رأينا انحراف التشريع البَشرى فيها :

١ - حقوق الإنسان :

يقرر القرآن الحكيم فى هذا المجال حقيقتين بارزتين لم يهتد إليهما تشريع بَشرى قط .

الأولى : أن الناس متفاوتون فى المواهب والاستعدادات والمَلَكات الذهنية ، وأن هذا التفاوت له حكمة عظيمة فى تقدير خالق الناس ومدبر أمورهم . وغاية ذلك إعمار هذا الكون واحتياج كل إنسان لأخيه وتبادل المنافع بينهم تبعاً لاختلاف مواهبهم وقدراتهم ، تلك هى سُـنَّة الله فى خلقه ، ولو كانوا مستوين فى المَلَكات والقدرات لجمدت الحياة .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الزخرف : ٣٢

فهم متفاوتون فى القوة والضعف ، وفى الغِنَى والفقر ، وفى العلم والجهل ، وفى الإقدام والإحجام ، وفى الفطنة والتبلد ، وفى المناقب والمثالب ، وفى الكرم والبخل ، وفى سعة الحيلة وضيقها ، وفى الحِرَف التى يمارسونها . وهذا التفاوت غايته تشابك المصالح وتبادل المنافع لتسير عجلة الحياة ، وقد عبَّر أحد الشعراء عن هذا المعنى فقال :

الناس للناس مـن بـدوٍ وحاضـرة بعضٌ لبعضٍ - وإن لم يشعروا - خدم

أما الحقيقة الثانية . . فإن هذا التفاوت ليس مقياساً للفضل بين الناس ، فهم - جميعاً - سواسية عند الله ، وإنما مقياس الفضل عند الله هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح . هذا المبدأ العظيم تقرره آية واحدة قصيرة المبنى غزيرة المعنى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

بهذا القرار الإلَهى التشريعى الحكيم قضى هدى الله ودينه على كثير من القيم الزائفة التى يتخذها الناس مقاييس للفضل والشرف :

قضى على نظرية الجنس ، ونظرية اللون ، ونظرية البيئة ، ونظريات الحسب والنسب ، والجاه والغنى ، والقوة المادية الباطشة . فكل هذه « القيم » لا وزن لها فى الإسلام إذا لم يصاحبها إيمان واستقامة وتقوى وعمل صالح . فالهنود والرومان واليونان وبنو إسرائيل ومَن جرى مجراهم كانوا خاطئين فى تفضيل مَن فَضَّلوا ، وتحقير مَن حَقَّروا ، وكل النزعات العنصرية الدابرة والقائمة هى ضرب من الغرور الطائش ، والوهم الزائل . فالناس سواسية كأسنان المشط بأصل الخِلْقة مهما تباينت أجناسهم وألوانهم وبيئاتهم . وفى هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى » .

---

(١) الحجرات : ١٣

وكان عمر بن الخطاب يشير إلى أبى بكر وبلال - الذى اشتراه أبو بكر ثم أعتقه - ويقول : « هذا سيدنا وأعتق سيدنا » .

كما يشير القرآن الكريم إلى خطأ مَن اعتقدوا أنهم فضلاء لكثرة أموالهم وأولادهم فقال : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عندنَا زُلْفَى إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ (١) .

فليس للإنسان سيد من الخلق ، ولا هو سيد لأحد منهم ، وهذه منزلة تبوأها الإنسان فى هدى الله ودينه ، لم يحظ بها فى تشريع بَشرى قط .

* *

٢ - صلة الإنسان بالله :

سوَّى دين الله وهداه بين الناس جميعاً ، ولم يجعل لأحد - مهما علا - فضلاً أو سيادة على أحد - مهما نزل - ثم نفى فى تشريع آخر أى واسطة بينه وبين الناس ، فالله سميع عليم بكل شئون خلقه ، يتوبون فيتوب عليهم ، ويدعون فيسمع دعاءهم ، لا تتوقف توبته عليهم ، ولا سماعه لدعائهم على وساطة كاهن أو شفيع : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله يبسط يديه بالنهار ليتوب مسئ الليل ، ويبسط يديه بالليل ليتوب مسئ النهار » .

ويمضى القرآن ليقرر أن الذنوب لا يغفرها إلا الله : ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا اللهُ ..** ﴾ (٣) .

---

(١) سبأ : ٣٧ (٢) البقرة : ١٨٦ (٣) آل عمران : ١٣٥

وبهذا يتحطم كرسى الاعتراف ، وتصم آذان الكهان الذين يدَّعون قدرتهم على غفران الذنوب بعد افتضاح مرتكبيها ، وتحرق صكوك الغفران ، وتسقط ربوبية الأحبار والرهبان ، وتزول لعبة الاستخفاف بالعقول ، ويتحرر الإنسان فى شريعة الرحمن من الوسطاء والأوصياء ، وتتفتح أمامه أبواب السماء بلا رقيب ولا حسيب من البشر .

❊ ❊

٣ - لا عصمة لمخلوق :

مما اشتط فيه التشريع البَشرى ما شاع بين أهل الكتاب من يهود ونصارى من إضفاء العصمة على الأحبار والرهبان والبابوات وطاعتهم طاعة عمياء فى كل ما يُشرِّعون لهم ، واتخاذهم أرباباً من دون الله ، ومن الناس - قديماً - مَن اتخذ من الملائكة والنبيين أرباباً .

أما فى دين الله وتشريعه فتختفى كل هذه الأوهام ، فلا عصمة فيه لأحد من الخلق - حتى الأنبياء والمرسلين - إلا فيما أُمروا بتبليغه ، فهم فيه أمناء فطناء معصومون من الخطأ فى التبليغ . أما فى غير ما أُمِروا بتبليغه مما يصدر عنهم من آراء فى بعض المشكلات العارضة ، أو تدبير شئون خاصة لا صلة لها بالتبليغ أو التحليل والتحريم فإن الخطأ أو خلاف الأصوب جائز وقوعه منهم .

ومعلوم أن أنبياء الله ورسله هم صفوته من خلقه ، ومختاروه منهم ، ومع هذا فلم يأذن لهم بالتشريع من عنديات أنفسهم إلا ما كان طريقه الوحى أو الإلهام الكاشف المنزَّل منزلة الوحى الأمين .

ومن قواطع الأدلة فى دين الله على ما تقدَّم قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ❊

وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وشنَّع القرآن على أهل الكتاب حين نزَّلوا أحبارهم ورهبانهم وبعض أنبيائهم منزلة الأرباب فقال : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلا لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

ويقول النبى ﷺ : « كل ابن آدم خطَّاؤون ، وخير الخطَّائين التوَّابون » .

وفى وقف شئون التشريع على الله وحده ورد قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ (٣) .

فقد وقفت الآية قضايا التشريع على وحى الله وحده .

وقال مشنِّعاً على فريق من الناس : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ .. ﴾ (٤) .

ويبين فى موضع آخر أن الله هو مصدر التشريع إلى جميع الأمم التى بعث فيها أنبياء ، فيقول مخاطباً خاتم الرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ... ﴾ (٥) .

ويأخذ على طائفة من الناس وضعهم تشريعات لم يأذن بها الله فيقول :

---

(١) آل عمران : ٧٩ - ٨٠ (٢) المائدة : ٣١ (٣) الأنعام : ١٤٥

(٤) الشورى : ٢١ (٥) الشورى : ١٣

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وفى آية أخرى يُنكر القرآن الكريم أن يتناول الناس شيئاً من أمور التشريع بغير هدىً من دين الله ، ويطلق على هذه الظاهرة الجاهلية وصف الكذب ، ويقضى على ممارسيها بالخسران وعدم الفلاح . فقد ورد فى هذا قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

إن التشريع فيما يتعلق بالتحليل والتحريم ، وما يتصل بهما يخضع لاعتبارات دقيقة ومعقَّدة ، يقصر العقل البَشرى عن إدراكها بغير وحى الله ودينه ، فالناس - دائماً - يصيبون ويخطئون ، وليس فيهم مَن هو معصوم من الخطأ ، لا بابوات ولا مامات ، ولا أحبار ولا رهبان ، ولا شيوخ مهما أُوتوا من العلم والمعرفة .

ومن أقطع الأدلة على قصور العقل فى هذا المجال الاضطرابات والتناقضات التى شاعت فى التشريعات البَشرية قديماً وحديثاً ، فالناس - جميعاً - عليهم أن يكفوا عن هذا الانحراف الخطير ، وأن يلتزموا ما شرع الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله الصادق المصدوق . فإن التشريع بغير ما أنزل الله منازعة لله فى واحدة من صفات « الألوهية » ، ولهذا حذَّرنا العليم الخبير فقال : ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) يونس : ٥٩ (٢) النحل : ١١٦ - ١١٧ (٣) الأعراف : ٣

وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

* *

٤ - كفالة الحريات :

حينما تعرَّضت التشريعات الوضعية لحقوق الإنسان أساءت إليها إساءات بالغة . وبرزت تلك الإساءات - كما تقدم - فى تقسيم المجتمعات إلى طبقات ، بعضها لها كل المزايا بالوراثة ، وبعضها ترفل فى قيود الذل والتبعية والرق بالوراثة كذلك ، وتُسخَّر لخدمة الأسياد وتقوم بأشق الأعمال .

ولكن هدى الله ودينه أنصف تلك الطبقات الذليلة ، وجعل لكل إنسان حقوقاً مرعية بمجرد أن يولد حتى آخر يوم فى حياته ، وقضى تشريع الله الحكيم على كل ألوان الظلم والاضطهاد ، وفتح الأبواب واسعة لتحرير الرقيق وإمتاعهم بالحريات اللازمة واللائقة بكرامة الإنسان .

ومن تلك الحقوق كفالة الحريات الإنسانية ، ومن أبرزها :

(١) حرية الاعتقاد : فليس لأحد على أحد سلطان لإجباره على الدخول فى أية عقيدة ، وإن كانت عقيدة الإسلام . والنص التشريعى الخالد فى هذا المجال هو قوله تعالى : **﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ .. ﴾** (٢) .

وقوله تعالى : **﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً .. ﴾** (٣) .

(٢) حرية العمل : فلكل إنسان أن يختار من الأعمال ما يوافق مواهبه دون حَجْر عليه من مخلوق مثله ، ما دام العمل الذى يؤديه مشروعاً ولا يترتب

---

(١) الأنعام : ١٥٣ (٢) البقرة : ٢٥٦ (٣) الكهف : ٢٩

عليه ضرر بأحد . والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿ **اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ (١) .

فلا رقابة لأحد على أحد فيما يعمل إلا رقابة الله سبحانه ، ما لم يكن فى العمل اعتداء على النظام العام الذى شرعه الله للناس ، فلا بد من النهى عن هذا المنكر ، وتطبيق شرع الله على مرتكبيه .

وأحياناً يُعبِّر القرآن الحكيم عن العمل بالمشى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ (٢) .

(٣) حرية القول والرأى : لم يحجر الإسلام على أحد فى أن يُعبِّر عما فى نفسه من معان ، أو يبدى رأيه فى مشكلة ، كل ما يضعه الإسلام للقول والرأى هو أن يتوخى المتكلم الحق والصلاح فى قوله ، والنصح والإصلاح فى رأيه . قال سبحانه : ﴿ **فَلْيَتَّقُواْ اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ (٣) .

وفى مجال إبداء الرأى فُتح باب التشاور فى كل الأمور التى يحيط بها نوع من الغموض : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ..** ﴾ (٤) .

كما فُتح باب الدعوة إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله عند وقوع النزاع بين الجماعة بعضهم بعضاً ، أو بينهم وبين ولاة أُمورهم : ﴿ .. **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ..** ﴾ (٥) .

(٤) حرية التملك : لم يحد هدى الله ودينه مقادير معيَّنة للتملك ، وإن بلغت ثروات الأفراد عنان السماء ، ما دامت طرق الكسب مشروعة ، والحقوق مؤداة ، وتشتمل حرية التملك عدة صور :

---

(١) فصلت : ٤٠ (٢) الملك : ١٥ (٣) النساء : ٩
(٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) النساء : ٥٩

١ - تملك المقدار مهما بلغ .

٢ - تملك النوع ما لم يكن محرَّماً كالخمور والمخدِّرات .

٣ - حرية التصرف ما لم يكن فى محرَّم .

٤ - حرية بقاء الملك بيد صاحبه ما لم تدع ضرورة الجماعة نزع شئ منها مقابل تعويض عادل .

وبكفالة هذه الحريات الضرورية كفل هدى الله ودينه للإنسان كرامته وجعله أهلاً لتحمل المسئولية وأداء دوره فى الحياة ، ولا سلطان عليه لأحد سوى سلطان خالقه ومولاه .

❊ ❊

٥ - ظاهرة الرق :

لا يقدح فيما قررناه من كفالة الحريات فى دين الله وهداه ما نجده من الفقه الإسلامى من أحكام الرق ومِلْك اليمين ؛ لأن كلمة الحق التى ينبغى أن تقال فى هذا المقام : أن الإسلام جاء ونظام الرق فاش فى المجتمعات الإنسانية ، والاتجار فيهم كان يمثل جانباً ضخماً فى الاقتصاد العالَمى ، وكان من الممكن أن تنزل آية واحدة تقضى بتحريرهم فوراً . ولكن من حكمة التشريع الإسلامى أن أبقى على أصل تلك الظاهرة لئلا يلحق الضرر بمالكى الرقيق ، ثم فتح الأبواب واسعة للقضاء عليها بالتدريج ، فجعل العتق قُرْبة عظيمة يتقرَّب بها المعتِق من الله ثم :

١ - جعل العتق من كفَّارات اليمين .

٢ - ومن كفَّارات الظِّهَار .

٣ - ومن كفَّارات الفطر بلا عذر فى شهر رمضان .

٤ - ومن كفَّارات القتل الخطأ .

ومصارف أخرى عملية أسهمت فى تصفية ظاهرة الرق ، ولم ينشئ الإسلام حالة واحدة يترتب عليها حدوث استرقاق جديد إلا أسرى الحرب ريثما تضع الحرب أوزارها ، ويتم التصرف فيهم حسبما يتفق عليه الطرفان .

فالإسلام ليس مسئولاً عن استحداث ظاهرة الرق ، بل هو التشريع الوحيد الذى رسم طرق القضاء عليها إلى الأبد .

❊ ❊

٦ - شخصية الجريمة :

من المزالق الخطرة التى هوت فيها بعض التشريعات الوضعية القديمة ، وما تزال تطبقها تشريعات وضعية معاصرة : إيقاع العقوبة على مرتكبى بعض « الجرائم » كعقوبة الإعدام أو الاعتقال أو السجن ، ثم تطبيق عقوبات أخرى على أسر مَن أُعدموا أو اعتقلوا أو سجنوا ، كحرمان الزوجات والأولاد من المعاش والتضييق عليهم بأساليب أخرى ، هذا ما يحدث الآن ، وقديماً كانت بعض النظم الوضعية تطبق العقوبة على « المجرم » وعلى أهل بيته سواء بسواء باعتبار الجميع مجرمين ، ومن أوضح صور هذا الانزلاق ما يعتقده النصارى من أن عيسى عليه السلام قدَّم نفسه للصلب ليفدى البَشرية من خطيئة أبيهم آدم حين أكل من الشجرة المحرَّمة فعصى آدم ربه بالأكل منها ، وأن ذُرِّيته من بعده حملت إثم هذه المعصية ، فجاء عيسى وصُلب - حسب عقيدتهم - ليُخَلِّص البَشرية من خطيئة أبيهم !!

وجاء هدى الله ورسالته الخاتمة فصحَّحت هذه الأخطاء جميعاً بما يأتى :

أولاً : أن الجريمة - مهما كانت - إنما هى كسب شخصى يتحمل مسئوليتها

الذى ارتكبها وحده ، لا تتعدى إلى غيره ممن لهم صلة بالمجرم أباً أو أماً ، أو ولداً أو أخاً ، أو زوجة ما دام غيره لم يشترك معه فى الإجرام .

فقد جاء فى القرآن الحكيم : ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ (١) .

كما ورد : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ **مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ (٣) .

ثانياً : إن خطيئة آدم قد عفا الله عنه فيها ثم تاب عليه فصار مبرأً من أى مؤاخذة عليها : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ (٥) .

فخطيئة آدم - كما ترى - محتها التوبة ، ولم يَعُد هو مسئولاً عنها ، فكيف تتحملها ذُرِّيته من بعده ؟

وحتى لو لم يتب ، ويتب الله عليه ، لظل هو وحده المسئول عنها ، لأن الخطايا لا تورث ، ولأن الله ليس بظلام للعبيد : ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ (٦) .

وهكذا يحرر هدى الله ودينه الإنسان من أن يؤخذ أحد بجريرة أحد ، ويقرر الحقوق والواجبات الإنسانية فى تشريع عادل حكيم ، يساير سنن الفطرة ، فلا ظالم ولا ظلم ولا مظلوم ، وإنما عدل ورحمة ، وقسطاس مستقيم .

* * *

---

(١) الزمر : ٧ (٢) المدثر : ٣٨ (٣) الإسراء : ١٥

(٤) البقرة : ٣٧ (٥) طه : ١٢١ - ١٢٢ (٦) النساء : ٤٠